الهوية الوطنية في فكر مالك بن نبي

National identity in the thought of Malek Bennabi

مقدود فريدة

جامعة غرداية (الجزائر)، M_farida87@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/04/28 تاريخ القبول: 2022/05/30 تاريخ النشر: 2022/06/30

الملخص

عرف العالم العربي والإسلامي في القرنين الأخيرين حركات فكرية عديدة عملت على النهوض و الدفع به للخروج من حالة التخلف والوهن التي تعيشها مجتمعاته من جراء الأفكار الدخيلة عليه من العالم الغربي من جراء العولمة ومخلفاتها ؛ التي أثرت على سلوك الفرد المسلم وعلى شخصيته وهويته الوطنية ، فاختلفت هذه الحركات في تشخيص هذه الحالة المرضية وفي وصف العلاج الكفيل بحلها تبعا للمنهج الذي اعتمده كل مفكر وكل تيار.

ومن بين هذه الحركات الفكرية برز تيار كان يدعو إلى تأسيس حضارة إسلامية لها شروطها النابعة من ثقافتنا وديننا للمحافظة على المبادئ و القيم الثقافية والدينية ، وضمن هذا التيار نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي ساهم وبشكل كبير من خلال أفكاره في الحفاظ على الشخصية الوطنية المتشبعة بالقيم الإسلامية ، لأن العقول الإسلامية اليوم تواجه أفكار وسلوكات دخيلة عن عاداته وتقاليده وثقافته الإسلامية ،وهذا لاستيراده لثقافات مغايرة أثرت على شخصيته الوطنية، ومقالنا سيأتي للحديث عن هذه الإسهامات.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، الهوية الوطنية .

Abstract

In the last two centuries the Arab and Islamic world has known many intellectual movements that have worked to advance and push it out of the state of backwardness and weakness in which its societies are living as a result of the foreign ideas of the western world as a result of globalization and its remnants; which affected the behavior of the Muslim individual, his personality and his national identity, so these movements differed in diagnosing this pathological condition and the treatment that would solve it according to the approach by every current .

Among these in intellectual movements, a current emerged that called for the establishment of an Islamic civilization that had its own condition stemming from our culture and religion in order preserve cultural and religious principles and values. Within this current we find the Algerian thinker Malik bin Nabi, who contributed greatly through his ideas today to preserving the national character imbued with values Islamic, because Islamic mind today are facing extraneous ideas and behaviors about his Islamic customs, traditions and culture, and this is because he imported different cultures that affected his national character.

And our article will come to talk about these contributions.

Key words : Malik bin Nabi, national identity.

المقدمة

مالك بن نبي أولى اهتماما كبيرا وسعى بكل جهد إلى إرجاع المجتمع الإسلامي إلى الحضارة والتألق الذي كان فيه ، لهذا جعل جل اهتماماته في محور أكبر سماه مشكلات الحضارة وهذا كله سعيا منه للوصول إلى الحضارة الإسلامية المحضة التي تحمي الشخصية الوطنية وترسخ السلوك الحضاري في نفوس أفرادها من خلال البحث في كل المشكلات التي من شأنها أن تؤخر الحضارة في المجتمع الإسلامي أو تمنعها ، والتي من بينها الأفكار الدخيلة عن المجتمعات الإسلامية نتيجة التقليد

ولهذا نجد أفكار مالك بن نبي جاءت طامحة لإحداث التغيير المطلوب في بنية الذهنية الثقافية للأفراد في الأمة العربية والإسلامية ، وكأنه يقول لما لا نؤسس نحن المسلمون لحضارة إسلامية خاصة بنا بعيدا عن الوافد من الأفكار والدخيل من السلوك؟ ، لا بد أن تكون نابعة من قيمنا وديننا وثقافتنا العربية الإسلامية وليست مستوردة .

ولهذا جاءت دراستنا للبحث عن إسهامات مالك بن نبي في صون الهوية الوطنية والحفاظ عليها .

فكيف نحافظ على الهوية الوطنية حسب مالك بن نبي؟

1. كيف نحافظ على الهوية الوطنية حسب مالك بن نبي؟

يرى مالك بن نبي أنه حتى نتمكن من الحفاظ على هويتنا الوطنية لابد من الانطلاق نحو تغيير اجتماعي وثقافي ونهضة حضارية ، كما يجب علينا أن نقوم ببناء الأسس التي تنهض عليها هذه النهضة والنابعة من ثقافتنا ، فهو يقول:" فإذا أردنا أن نبني مجتمعا أفضل فهذا يعني أننا نبني مجتمعا متحضرا، وهو بدوره أيضا يعني أنه لابد أن نعمل لتكوين حضارة".

فالحضارة حسبه التي تمهد لتشكيل هوية وطنية قوية لها مقوماتها المنبعثة من ثقافة المجتمع هي: " مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين، أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطواره" " وهي ذات جانبين: الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية، في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي الوظيفة الحضارية "التي تحمي هوية المجتمع وأفراده.

وأسس التغيير عند ابن نبي تتجلى من خلال الاهتمام بعناصر ومقومات الحضارة التي تجسد مقومات الهوية الوطنية ، وهي الإنسان، والتراب، والوقت، والفكرة الدينية التي تربط بين هذه العناصر، ومنظومة اجتماعية قادرة على احتضان هذه العناصر في تركيبها الكلي.

وهذه العناصر كما أشار إليها مالك ابن نبي تمثل المرتكزات الأساسية للحضارة، وهذه العناصر (إنسان + تراب+ وقت= حضارة) لكي تستطيع القيام بدورها يجب الربط بينها بمركب الفكرة الدينية ،وهذه العناصر هي:

2.1 الاهتمام بالإنسان

لقد أولى ابن نبي عناية بالغة بالإنسان ، انطلاقا من الدور الذي يلعبه في التاريخ، وباعتباره الأساس الذي من خلاله ترتقي الحضارة لتستطيع أن تخلق كل المقومات اللازمة لإنشاء هوية وطنية موحدة في مراحلها الثلاث، وهذه المراحل تتوافق مع عمر الإنسان، حيث يكون في البداية ساكنا خامدا، ثم عنصرا حضاريا فعالا، وبعدها يضعف ويصبح محروما من كل قوة دافعة وهذا في مراحله الأخيرة من الحياة.

والإنسان باعتباره هو الذي يوجه الأشياء، والأفكار، والوقت، والتراب، ويصنع الحضارة، فإنه هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية للمعادلة التي صاغها ابن نبي ، ولتوضيح ذلك قام ابن نبي بوضع تخطيط يبين فيه تطور الإنسان مع تطور الحضارة، وتطور الإنسان لا يحصره ابن نبي في الجوانب المادية والخُلقية للأفراد، بل يربط هذا التطور بدرجة الفعالية لدى مجتمع الحضارة وهويته.

والشكل الآتي يوضح تطور الحضارة حسب مالك بن نبي.(سعود، 2004، ص51)

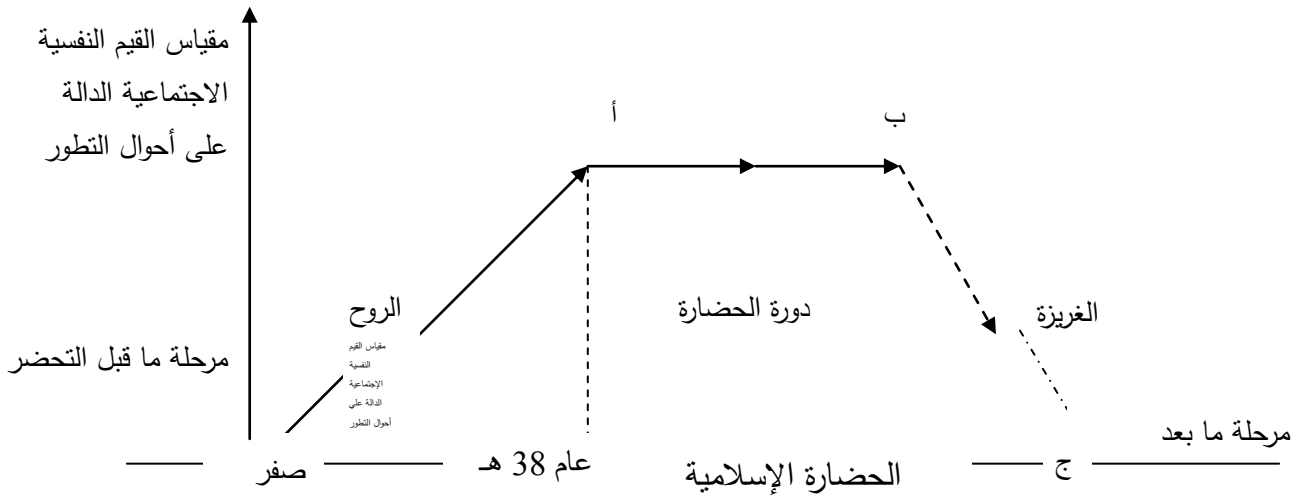

2.1 الاهتمام بالتراب

لقد عنى ابن نبي بهذا العنصر لقيمته الاجتماعية، التي يستمدها من قيمة الأمة وهويتها، "فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط". (بن نبي، 2009، ص 139).

وابن نبي يستخدم هذا المصطلح لأنه عماد حياة المجتمع المادية، والتراب في رؤية ابن نبي كل شيء على الأرض، وما في باطنها، ويعني بالتراب هنا ليس هو المعنى المتبادر إلى الذهن، فقد تعمد ابن نبي ألا يستخدم كلمة مادة وإنما استخدم لفظ "التراب"، لأن التراب يتطلبه الإنسان ليكون ثقافته وهويته الوطنية يتخذ صورتين: صورة الملكية من حيث تشريع الملكية في المجتمع الذي حقق للفرد الضمانات الاجتماعية، فالتراب هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث التشريع ، وهو يتطلبه بصورة أخرى من ناحية علم التراب والمعلومات التي تتطلبه كالكيمياء وغيرها، فالتراب نعنى به هذين الجانبين جانب التشريع، وجانب السيطرة الفنية". (بن نبي،2002، ص 168).

وابن نبي يرى أن عنصر التراب متوفر لدى الأمة العربية والإسلامية، فالبلاد العربية غنية بالثروات الطبيعية والزراعية، لكن الأفراد تخلوا عن هذه الثروة، وهو يضرب مثالا عند تحليله لعنصر التراب بالجزائر كمثال لكل البلاد العربية، إذ يرى أن إنسان البادية تخلى عن أرضه ولم يعد له شيء يربطه بها، وفي هذه الحالة يرى أن الوضع خطير، ولكن يجب علينا أن نقف ضد هذه الحالة ونقوم بإصلاحها قبل أن تنمو وتتطور ويستحيل بعد ذلك إيقافها. وهو يعتبر أن نقطة انطلاق كل إصلاح اجتماعي تكون من خلال توفير الغذاء والملبس، ولإبراز قيمة التراب وكيف يتعامل معه الفرد، يقدم لنا مثالين ، فيتحدث أولا عن كيفية تعامل الجزائري بصفة خاصة والعربي المسلم بصفة عامة، مع ظاهرة التصحر، وكيف ترك المجال لرمال الصحراء بأن تكتسح كثيرا من البلاد التي كانت صالحة للزراعة، وكيف تعامل الفرد الفرنسي مع رمال الشاطئ الأطلنطي والمستنقعات الضارة في جنوب فرنسا، فالأول ترك الحال على ما هو عليه وهرب إلى الشمال، وأصبحت هذه المناطق تعاني من الفقر وقلة الموارد بعدما كانت من أغنى المناطق ، في حين أن الثاني قام بالتصدي لها من خلال عملية غرس الأشجار، وبعد مدة أصبحت تلك المنطقة أول منتجع في العالم لزيت "التريبنتين" المستخرج من الأشجار التي قاموا بغرسها، وهذا بعدما كانت هذه المنطقة من أفقر المناطق وأخطرها على الصحة في فرنسا.(بن نبي، 2009، ص 143)، وهنا يدعو ابن نبي إلى ضرورة استغلال الموارد الطبيعية المتوفرة لدينا بشكل يغلب عليه الطابع الفني، فلا تهم قيمة الوسائل التي نملكها من دون وجود فن عملي يعمل على استغلالها وتطويرها.

3.1. الاهتمام بالوقت

وهو الزمن الذي بتحديده يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن وفي "ساعات الخطر في التاريخ تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يُقَّوم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر". (بن نبي، 2009، ص 139).

لا ينقص العالم الإسلامي معرفة شيء اسمه (الوقت)، ولكن ينقصه إدراك معناه، فينتهي عنده الوقت إلى عدم "ولسنا نعرف إلى الآن فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ، مع أن فلكيا عربيا مسلما هو "أبو الحسن المراكشي" يعتبر أول من أدرك: هذه الفكرة الوثيقة الصلة بنهضة العلم المادي في عصرنا. (بن نبي، 2009، ص 146).

لكن الذي ينقصنا اليوم هو كيفية استغلال هذا الوقت بطريقة منطقية، وهو يدعو إلى إنشاء علم عربي يعلم الأجيال معنى الزمن الذي ينمي في عقل الفرد المسلم معنى الوقت، أي أن يصبح الوقت مرتبط بأسلوب الحياة في المجتمع وبسلوك أفراده.

4.1. الاهتمام بالفكرة الدينية

الفكرة الدينية في عمومها أساس لكل مشروع حضاري يجسد هوية وطنية قوية ومتماسكة ،

يقول ابن نبي : "فالحضارة لا تبعث– كما هو ملاحظ– إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفى البرهمية نواة الحضارة البرهمية. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحى يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، أوهي– على الأقل– تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية.(بن نبي، 2009، ص 50–51)

ولقد كانت قناعة ابن نبي في الدين الإسلامي على الخصوص، على أنه يملك من المقومات ما يغير حياة الفرد وحياة المجتمع، كما أنه يحمل من جهة أخرى مقومات وجوده واستمراريته ويجسد لهويته.

وتكمن أهمية الفكرة الدينية في أن كل عمل اجتماعي أو ثقافي إذا تم في ظلها، سيعكس لا محالة تصورا دينيا بعينه، لهذا لابد أن نستحضر– نحن المسلمين– الفكرة الإسلامية أثناء قيامنا بعملية التغيير، ذلك لأن: "الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره حين تغير من نفسه، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد وإبراز ملامح هويته الوطنية، أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة، كأنها تتمثل في وجه جديد". (بن نبي،2009، ص 34) واقتران الحياة

الاجتماعية بالفكرة الدينية كبير لدرجة أنه إذا تم التخلي عن هذه الفكرة، وعن القيم الأخلاقية التي تحملها، أصيبت الأمة بالدمار وتشتت هويته وذابت في هوية الآخرين ، والسبب في هذا راجع للأشخاص، ولهذا إذا أردنا التغيير من الوضع الاجتماعي انطلاقا من دائرتنا الفكرية والثقافية، ينبغي أن ندرك أولا أن الخلل الاجتماعي الذي نعيشه ليس خللا فرديا، بل هو خلل وفساد اجتماعي بالدرجة الأولى، بمعنى أنه إن كانت المفاسد الإعتقادية والعملية إنما توجد متفرقة في الأفراد وكان مستوى الأمة الديني والخلقي رفيعا من حيث المجموع بحيث يحجب مساوئ الأفراد، فمهما يكن من فساد سيرة الأفراد تظل الأمة من حيث المجموع محتفظة بكيانها وهويتها ولا تحل بها فتنة عامة تجر عليها الهلاك بأكملها، لذا لا ينبغي أن نفهم أن التغيير مقتصر على الفرد فقط، بل هو تغيير القوم –المجتمع– لما بهم، حتى يتحقق تغيير الله لهم.

يبدأ التغيير من نقطة أساسية هي الأخلاق، لأن التعاليم الأخلاقية هي التي تضعنا على طريق الحضارة، وهي التي تعلمنا فن التعامل مع الغير.

ويخلص ابن نبي إلى فكرة تجعلنا نجيب عما إذا كانت هناك علاقة بين ما هو اجتماعي وبين ما هو ثقافي، وذلك من خلال حديثه عن فعالية عالم الأشخاص وضرورة تآلف الأفكار والأشياء في تركيب معين لتتحول إلى عناصر ثقافية "فعالم الأشخاص لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فعال إلا إذا نظم وتحول إلى تركيب". بمعنى أن الفرد خارج هذا التركيب الاجتماعي سيكون منعزلا عن كل ما يدفعه للتفاعل مع ما يحيط به من أفكار وأشياء وثقافات لأن "الفرد المنعزل لا يمكن أن يستقبل الثقافة، ولا أن يرسل إشعاعها". (بن نبي، 2012،ص 56) ، هذا فيما يتعلق بالتركيب الذي لابد لعالم الأشخاص أن يخضع له، أما فيما يتعلق بعالم الأفكار وعالم الأشياء فيقول ابن نبي "فإذا ما اتجهنا إلى المجال الاجتماعي وجدنا أن الأفكار والأشياء لا يمكن أن تتحول إلى عناصر ثقافية إلا إذا تآلفت أجزاؤها وأصبحت تركيبا، فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبدا". وارتباط ما هو ثقافي بما هو اجتماعي يتجلى أيضا في الفرق الذي قدمه ابن نبي بين العلم والثقافة، وكيف أن الثقافة منبعها الحياة الاجتماعية، وكيف أنها تخلق بيننا علاقات اجتماعية: "فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة –أي– استخدام جميع ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص، وليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي أنه مجرد جهد تبذله عقولنا حين تستخدم في عالم الأشياء. فالأولى تحركنا وتقحمنا كلية في موضوعها، وأما الثاني فإنه يقحمنا في مجاله جزئيا، والأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني، والآخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء". (بن نبي، 2012، ص 57).

وعلى هذا فالخطوة التي تلحق تغيير القوم في أخلاقهم– وحتى نحقق علاقات اجتماعية على أسس صحيحة– هي العمل على التغيير من الثقافة المتداولة حاليا، حتى تصبح ثقافة لها دور فعال في إعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية القادرة من خلال "عالم الأشخاص" أبدع بـ"عالم الأفكار" و "عالم الأشياء"، وأن نعمل أيضا على تعليم الإنسان المسلم "فن الحياة" مع غيره، لأنه ليس مهما أن نعلمه كتابة شيء جميل أو

قول شيء جميل وهو جاهل بفن التعامل "أو التعايش مع غيره، وابن نبي يطلق على هذا "الفن" –فن الحياة– وأسماه أيضا بـ "التحضر" يطلق عليه اسم "ثقافة". فالثقافة تحتوي على "الأخلاق، والجمال، والمنطق، والصناعة الفنية "ولكن الإشكال لا يكمن فيما تحتويه الثقافة، وإنما يكمن في كيفية استيعاب هذه المحتويات، وعلى حد قول ابن نبي : "كيف ينبغي أن ندركها–هذه المحتويات– في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، في ظروف نفسية وزمنية معينة، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية وفي مستوى أهداف الإنسانية ". إن الذي ينقصنا إذن، ليس محتويات الثقافة ولا وسائل نشرها أو اكتسابها، وإنما الذي نفتقر إليه هو المنهجية والتخطيط أو ما سماه جودت سعيد في كتابه "الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا بـ "الفاعلية" أي القدرة على العطاء والخلق والإبداع لأنه الإنسان حين يفقد شيئا يبذل من أجله نفسه يفقد معه أساس الفاعلية ويغرق في أساس الكلالة والوهن ، سواء كان هذا الذي يبذل نفسه من أجله حقيقة يستحق ذلك أو لا يستحق، إذ المهم أن تحدث له القناعة في أنه يستحق" (بن نبي،2006، ص 49). وهذا هو فعلا ما يعيشه المجتمع الإسلامي، فعندما فقد الأساس الديني الذي كان وراء تركيب وتوجيه شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الذين كانوا يبذلون أرواحهم بأموالهم من أجله ومن أجل استمراره وبالتالي استمرار هذه الشبكة على أسس سليمة، فقدوا فعاليتهم وهويتهم الوطنية واستسلموا للكلالة والوهن. (بن نبي، 2006،ص 56).

إن المجتمع يتحول إلى حالة من العجز والوهن والكلل بحيث لا يعود يستفيد من الوسائل التي بين يديه في تحصيل نتائج أحسن في مجال الإصلاح، وهو ناتج عن الحالة النفسية والفكرية التي يعيشها الإنسان الكَّل. إن أزمة الأمة الإسلامية فيما يتعلق بحياتها الاجتماعية ليست أزمة مادة أو أجهزة أو ... وإنما هي أزمة بشرية، لا لقلة البشر بل هم كثيرون ولكنهم فقدوا الفعالية وقوة الدفع وذلك عندما أزاحوا عن طريقهم ما أسماه ابن نبي بالفكرة الدينية، أو جعلوها مجرد "كمون داخلي" عندهم، بمعنى أنهم أحدثوا الفصل بين الفكرة الدينية وبين مسيرتهم الحضارية. (سعيد،1994،ص 17).

لقد ركز ابن نبي على الفكرة الدينية وربط بينها وبين جميع أوجه الحفاظ على مرتكزات الهوية الوطنية ومقوماتها، وبذلك أحال النزعة الدينية من مجرد كمون داخلي عند الإنسان، إلى حركة حية في العالم المنظور، حيث ترتبط بها وتنطلق منها كل دروب النشاط الحضاري الذي يسمح بتشكيل هوية وطنية إسلامية لها ثقافتها الخاصة، وبذلك يجسد لنا ابن نبي حقيقة العلاقة بين الدين والهوية –بمعنى آخر– إنه يبرهن على الرابطة الموجودة بين نوازع الفرد الداخلية من جهة، وبين الوسط المجتمعي من جهة أخرى، ساعيا إلى صياغة جديدة لمشكلات المسلم المعاصر بوصفها قضية حضارة أولا وقبل كل شيء. ونعود إلى أمر آخر–سبقت الإشارة إليه–ويتعلق بجمود الفكر أو العقل المسلم، فتجمد الفكر يتسبب في تراجع كل المجالات الحيوية في المجتمع، وبالتالي إذا ظل هذا الفكر منعدم التأثير بقي النشاط في حركة فوضى، وتزاحما يبعث على الخيبة

والرثاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي. لهذا ينبغي التأكيد على أن أي نشاط لا يمكن أن يتم بمعزل عن الفكر. "فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت هذه العلاقة عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهدا بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم، فإن النشاط يصبح مختلا أو مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا هو في الحقيقة خيانة لطبيعتها، وتقليل من أهميتها، سواء كان غلوا في تقويمها أو حطا من قيمتها. (بن نبي، 1995، ص 35).

5.1. الاهتمام ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية

المقصود بشبكة العلاقات هو القدرة على التعاون والتنسيق بين هذه العوالم الثلاثة (الأفكار، الأشياء، الأشخاص) واستخدام الأفكار والأشياء في محلها. (بن نبي، 2012، ص 105)

والفرد في المجتمع الإسلامي، وبسبب ضعف العلاقات الاجتماعية لا تقدم له الضمانات والمبررات التي تجعله يقدم أقصى طاقاته، وكيف يقدمها وهو يرى الأنانية والتنافس البغيض، وقلة التشجيع، والأهم من ذلك هو عدم وجود الخبرة الكافية في العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع، (بن نبي، 2012، ص 72) إن الذي يخطط للنهوض بالمجتمع الإسلامي وهويته يجب أن يكون لديه أفكار جد واضحة عن هذه الأمور.

2. المعوقات التي تحول دون تشكيل هوية وطنية متشبعة بالثقافة الإسلامية

عندما يتحدث ابن نبي عن معوقات التغيير والنهضة الحضارية المجسدة لمقومات الهوية الوطنية، فهو يشير إلى الأمراض التي تعاني منها الأمة العربية والإسلامية، هذه الأمراض هي التي تعيق طريق التحرك نحو نهضة حقيقية تخلق للهوية كل معالمها. لذلك كان منهجه في التغيير يقوم على محاولة علاج النفس والإنسان، فإذا تمكنا من هذه الخطوة نكون قد حققنا شوطا كبيرا في طريق تكوين هوية وطنية قومية، يرى ابن نبي أن الأمة العربية والإسلامية تملك شرطي الحضارة التي تنبثق منها هوية مجتمعاتنا العربية الإسلامية (التراب والوقت) لكن ما ينقصها هو الإنسان، ذلك الشخص القادر على حمل رسالة النهضة والتغيير الفكري والثقافي، لذلك سنقوم هنا بعرض بعض هذه المعوقات التي تعيق كل جهد تغييري يرمي إلى تكوين هوية وطنية عربية إسلامية ، ومن بين هذه الأمراض

1.2. ذهان السهولة والاستحالة

إن من أكبر معوقات تكوين هوية وطنية مشبعة بالقيم الثقافية الإسلامية في المجتمع أن يتحكم فيه منطق الاستسهال والاستصعاب، سواء في التفكير أو في مواجهة المشكلات، فالروح التشاؤمية التي تحكم

باستحالة الأمور وتقر مسبقا بأن الأمر الفلاني أو القضية الفلانية غير ممكنة الحدوث أو لا يمكن القيام بها، نظرا لصعوبتها وعدم امتلاكها للوسائل التي نستطيع من خلالها فعل هذا الأمر، تتساوى في نتيجتها وأثرها مع الروح التي تُفرط في التفاؤل فتحكم على هذه القضية أو تلك المشكلة بأنها سهلة وبسيطة، وفي كلا الأمرين من حالات الذهان هذه يتجه الفرد إلى النشاط غير المجدي، فذهان الاستحالة الذي يحكم على الأشياء بصعوبتها واستحالة تنفيذها يقود إلى الشلل، وذهان السهولة الذي يحكم على الأشياء بسهولة أن تحدث يقود إلى النشاط الأعمى، والابتعاد عن الأهداف الحقيقية. (بن نبي، 2006، ص 80) وهذه الحالة النفسية بشقيها جزء من سجية وطبيعة الإنسان وميوله، وابن نبي في شرحه لهذه الحالة يقدم لنا مثالين؛ مثال على مستوى الميكرو والذي تمثله الأسرة، فهي إما أنها تتشدد في تربية أبناها وتجعل من التربية شيئا مهما جدا، فنجدها تحرم الطفل من كثرة الأصدقاء والخوف من الاختلاط بالغرباء .. خوفا من أن تفسد أخلاقه، وبهذا تنتج لنا فردا متحجرا بليدا غير قادر على التفكير خارج نطاق أسرته، أو أن ترخي الخيط وتتساهل مع الطفل وتعطي له كامل الحرية، فتنتج لنا فردا غير مسؤول وغير قادر على تحمل المسؤولية؛ والمثال الثاني وهو على مستوى الماكرو، حيث يتحدث عن سلوك رجال السياسة والحكم في بلادنا، فهم إما أنهم يضخمون القضايا مما يخلق وعيا لدى الأفراد باستحالة القيام بها، أو أنهم يستسهلون هذه القضايا مما يخلق هونا في نفسية الأفراد فيعجزون عن القيام بها.

2.2. أسطورة الجهل

عندما يتحدث ابن نبي عن أسطورة الجهل التي تسيطر على نفس الشعوب العربية والإسلامية، يربطها بالعناصر المكونة للثقافة والهوية الوطنية (المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والفن الصناعي.)، وبالمثقف في البلاد العربية، فتجد أن المثقفين في البلاد العربية حاملون لشعار نحن نعاني من الجهل والأمية، إذا نحن غير قادرين على التغيير الثقافي المكون للهوية والنهضة لأن شعوبنا غارقة في هذه الحالة من الجهل والأمية بسبب الاستعمار. لكن ماذا تفعل الطبقة المثقفة في بلادنا ضد هذه الوضعية، وهي التي تحمل سلاح الثقافة بين يديها والذي يعتبر السلاح العاجل ضد الأمية، ويعطينا ابن نبي مثالا حول هذا النشاط بحالة المثقفين اليهود إبان الحرب العالمية الثانية، كيف قاموا بالاهتمام بأبناء جلدتهم، وساهمت كل فئة متعلمة في استخدام معرفتها فيما ينفع شعبها، وهذا حدث رغم المراقبة والحصار الذي كانت تعيشه الأمة اليهودية في تلك الفترة، ولكن مقابل هذا نجد مثقفي الأمة الإسلامية وهم الفئة القليلة لم يسعوا بجهد كبير إلى فعل شيء يخدم عملية التغيير وتكوين هوية موحدة ، وحتى عندما بذلوا الجهد في ذلك نجدهم انقسموا إلى قسمين أو ثلاثة، القسم الأول وهو غالب لحد الآن ويتمثل في تلك الفئة المغتربة ثقافيا وفكريا، سواء تلقت تلك الثقافات الغربية داخل مجتمعاتها بطريق أو بأخرى، أو تلقتها في المجتمعات الغربية، وهذه الفئة نجدها تعمل

(من حيث تدري أو لا تدري) على نشر الأفكار القاتلة؛ والقسم الثاني وهو الذي يحمل لواء التغيير تحت ضوء المنهاج الرباني السليم، والذي لا يزال يعاني من الملاحقة والمصادرة ومنعت عنه الأموال مراكز الإعلام بالدرجة الأولى، ولكن يبقى هذا القسم مسؤولية عليه أداؤها رغم كل الصعوبات ليخرج بالأمة العربية والإسلامية من العدم الذي وقعت فيه، نتيجة الحرب التي شنها القسم الأول، على الهوية الثقافية والحضارية، ومسؤولية القسم الثاني تتجلى كذلك في تكريس الجهود والعمل على توعية الطبقة الاجتماعية التي تعاني من الأمية، وربط الصلة بينها لأنها هي الركيزة الأساسية لتحقيق النهضة، والطبقة التي تعاني من الأمية والجهل هي تمثل نسبة كبيرة في هذه الأمة، وابن نبي يرى بأن الطبقة المثقفة بشكليها قد انفصلت عن العامة، على عكس ما فعلت الطبقة اليهودية المثقفة أثناء الحرب العالمية الثانية. وأما قسم الثالث وهو أخطر من القسم الأول ويمثله ذلك المثقف الذي يعيش بلا مبادئ يرحب بكل الثقافات وخاصة ما يعرف بثقافة الترفيه، فهو مفتوح على الصالح والطالح، يقبل بكل ما يفد عليه دون معارضة أو انتقاد، وهذا هو القسم الذي يركز عليه الاستعمار في تعطيل النهضة، وهذا القسم هو الذي أصبح اليوم له انتشار كبير في مجتمعنا.

3.2. أمية الجهل بالقراءة والكتابة

وابن نبي يحمل الجميع في البلاد الإسلامية مسؤولية محو الأمية، ويؤكد ابن نبي على أن محو الأمية لا تتوقف عند تعليم القراءة والكتابة وإنما يجب "أن تكون في خدمة التوعية الحضارية والتغيير والصياغة السلوكية حتى يكون الأفراد مؤهلين تربويا وثقافيا لإعادة البناء والمساهمة فيه. فعملية محو الأمية إذن، يجب أن تخرج من دائرة تعليم القراءة والكتابة إلى دائرة أوسع وهي العمل على تثقيف المواطن وتوعيته أيضا بواقعه وبضرورة التغيير منه، ومبادئه وقيمه الخاصة، لأن الثقافة لا تعني الكتب والدراسات فقط، بقدر ما تعني النظرة التي تطور الحياة. لهذا لابد لعملية محو الأمية أن تضيف مهمة أخرى إلى جانب مهمة تعليم القراءة والكتابة وهي تقديم المادة الثقافية التي ترفع من مستوى المواطن في عصر توافرت فيه المعبرات الجماهيرية الضخمة وعلى صورة لم يسبق لها مثيل من قبل، وهي معبرات شعبية جماهيرية بالدرجة الأولى على رأسها التليفزيون والإذاعة والانترنت.

4.2. أسطورة الاستعمار

أما القاعدة الثالثة فتتمثل في :"أسطورة الاستعمار ""وهي التي تعجز ذوي القلوب الطيبة ،وتسوغ أحيانا أعمال المخاتلة والاختيال الأخلاقية والسياسية". وقبل الخوض في الحديث عن القاعدة الثالثة تجدر الإشارة إلى العامل الكامن وراء القاعدتين الأولى والثانية وهو عامل ذاتي داخلي أكثر ما هو خارجي، وهو ناتج عما أسماه ابن نبي بـ"القابلية للاستعمار" (بن نبي،2011، ص 88-93، ص 361). والاستعمار يعتبر

سلاحا مدمرا بطريقة منهجية للفكرة وللجهد العقلي، أو أي محاولة للبعث الأخلاقي أو الاقتصادي، بمعنى أنه سلاح يخرب كلما من شأنه أن يخرج الشعوب المستعمرة من أزمتها، ولكن الاستعمار ما كان ليلج لهاته الشعوب ويخربها لولا تواجد تلك القابلية للاستعمار، وفي الحقيقة أصبح الاستعمار الذريعة الوحيدة، أو المبرر الوحيد الذي نقدمه لنواري عجزنا عن القيام بعملية الخروج مما نحن فيه، فهو فعلا سبب من أسباب أزمتنا، ولكن ليس هو السبب الأول الكامن وراء عجزنا وخمولنا الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي...

الخاتمة

وفي آخر دراستنا هذه التي هي محاولة لإبراز أهمية المحافظة على الهوية الوطنية ، من خلال طرح لأفكار مالك بن نبي كرائد من رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، وكمفكر وباحث اجتماعي ، نستطيع القول أن عملية الحفاظ على الهوية الوطنية ممكنة وتأتي بإحداث نهضة حضارية وثقافية شاملة تكمن في العناصر الأساسية لهذه العملية وهي الاهتمام بالإنسان كونه محرك التاريخ وكل حركة تحدث في المجتمع، والاهتمام بالتراب الذي يمثل الموارد الطبيعية، وهذا من خلال العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي في الجوانب الاقتصادية، والاهتمام بالوقت كقيمة حضارية، والاهتمام بالفكرة الدينية التي تمثل العنصر المركب بين العناصر السابقة (الإنسان، التراب، الوقت)، وفي الأخير الاهتمام ببناء شبكة علاقات اجتماعية تكون نتيجة حتمية من خلال الاهتمام بالعناصر السالفة الذكر، وليس باستيراد الأفكار الغربية الغريبة عن الواقع العربي حتى تحافظ الأمة الإسلامية على هويتها الوطنية وتحصن أفرادها من الوافد من الأفكار والدخيل من السلوك ومن مختلف الظواهر الفكرية المهددة للشخصية الوطنية.

ومن هنا فإن مجتمعنا بحاجة إلى ثورة نهضوية سلمية داخلية تأتي من أسفل لا من أعلى، وهذا معنى الآية "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم !" الذي جعلها عنوانا لإحدى مؤلفاته.

المراجع

- بن نبي، مالك(1995)." **من أجل التغيير**" . ترجمة: عبد الصبور شاهين . إشراف ندوة مالك بن نبي. ط1. دار الفكر. سورية.
- بن نبي، مالك (2002). "**تأملات**" . إعادة الطبعة 1. دار الفكر. دمشق.
- بن نبي، مالك (2002). " **في مهب المعركة**" . إعادة الطبعة 3. دار الفكر. دمشق.
- بن نبي، مالك(2006)." **وجهة العالم الإسلامي**" . إعادة الطبعة6. دار الفكر. دمشق.
- بن نبي، مالك(2009)." **شروط النهضة**" . ط9. دار الفكر. دمشق.
- بن نبي، مالك(2011)." **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**".ط10. دار الفكر. دمشق.
- بن نبي، مالك(2012)." **ميلاد مجتمع**". ترجمة :عبد الصبور شاهين. ط9. دار الفكر. دمشق.
- سعود، الطاهر(2004)." **مشكلة الثقافة والحضارة في فكر مالك بن نبي**" . مجلة الكلمة. العدد42. السنة الحادية عشر. شتاء 2004. عن منتدى الفكر والأبحاث. لبنان. ص51.
- سعيد، جودت(1994)." **الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا**". ط1. دار الفكر المعاصرة. بيروت. لبنان.